من أجل إبداع واع

لمستقبل أفضل

ما الذي يحدث الآن بالنسبة لكتابات الأجيال الجديدة؟..

هل حقاً بين هذه الأجيال موهوبون هم من الكثرة إلى حد أن ترشقنا دور النشر يومياً بمئات الكتب ، أو بالأحرى:

(الكتيبات ــ الجديدة لأسماء جديدة)، ناهيك عن الأسماء التي تنشر "أعمالها" في مختلف الصحف والمجلات المحلية والعربية وكل هذه النتاجات تجدها منضوية تحت عناوين : (شعر ــ قصة قصيرة ــ قصة قصيرة جداً)؟!..

ولماذا يقرأ المرء.. ويقرأ... ويقرأ... ثم يبحث في ذاكرته عن (شيء)، علق فيها من قراءاته لتلك النتاجات فإذا به يكادلا يتذكر إلا النادر مما هو ذو قيمة بالفعل؟!

كلام.. كلام.. مزيد من الكلام الذي لا يظفر حتى بتأسيس بضع جمل جميلة ومثيرة للانتباه إذ هي تترك تأثيراً ما في أعماق نفس الإنسان!

مفردات تحاول كلها التقاط نثارات واقع مسطح مرئي حسي ومباشر وحين تتركب في جمل وتكون الجمل مفيدة ــ بصورة ما ــ فهي تنحو (بذاتوية) فادحة إلى غرائبية تصوير غير متماسك وغرائبية دلالة ــ إن كانت هناك دلالة ــ تجعل

(الاستهلاك اللفظي) غايتها الأخيرة ونادراً ما تبحث عن تماسك بنياني في النص الواحد فلا تجد حتى محاولة لتأسيس البناء أصلاً.

وإذا ما حاول المرء أن يحاور أصحاب هذا الفيض من الكلام الذي يفتقر غالباً إلى الطعم واللون والرائحة، حول الذي يريدونه من (صف ذلك الكلام)، أو حول الذي يريدون إيصاله للقارئ، سمع من الإجابات ما يؤسف له، ورأى من معاندة الأبجديات التي تجعل من الجنس الأدبي الواحد جنساً أدبياً بالفعل، ما يجعله يثق بأن هذه الأجيال التي تجرب ــ ومن حقها مبدئياً أن تجرب ــ أساليب جديدة في الأداء القولي الأدبي للتعبير عن ذاتها، إنما هي في الواقع تحطم الاتساق في الأسلوب عبر محاولات إبهارٍ مسكينةٍ لتمجيد صيغة التحطيم تلك!

وكثيراً ما يجد المرء، وهو يفتح أي (دفتر عشرة) مطبوع على أنه قصة أو شعر، اقتباس عبارات من مشاهير الأدباء العالميين على كثرة، أو مشاهير الأدباء العرب المعاصرين على ندرة.

ويتساءل المرء ثانية وهو يعيد صياغة السؤال الأول لتكون الإجابة عليه محاولة للكشف عن سر انعدام الجدوى وأسبابه في ركام الكلام ذلك فيهتف بأسف لا يخلو من مرارة وغيظ:

ــ لماذا يحدث هذا في عملية الكتابة لدى هذه الأجيال الجديدة..؟ لماذا..؟!..

هناك فقر معرفي رغم ارتقاء سويات التعلم والتخصص عندنا ارتقاءً مدهشاً؟!... نعم ثمة فقر معرفي مغيظ.

هناك استهتار بالشعر وبالقصة وبعملية الإبداع ذاتها، يظهره

هذا الاستعجال في النشر!.

نعم... الاستهتار هو السمة المميزة والغالبة في هذه الكتابات المنشورة!!

هناك في الرؤيات، ما يوحي للمرء أو يشعره في حضرة هذه الكتابات بأنه في بازارٍ للكلام؟... نعم، إنه بازار كلام مفتوح.. ويكاد يكون مفتوحاً على اللا شيء!!

هل تشجع الصحافة الثقافية هذه الظاهرة؟!... نعم، هي تشجع.. في أحوال كثيرة بالطبع.

ولكن هل كل هذه التساؤلات والإجابات تشكل في مجموعها ــ هي وكثير غيرها ــ إجابة على تساؤلنا الذي أعيدت صياغته حسبما هو مثبت أعلاه؟!

بالتأكيد: لا! وكيما نكون موضوعيين في البحث عن السر الجوهري والجذري الذي يحكم الظاهرة، إياها، علينا أن نغوص عميقاً لاستجلاء حقيقة ذلك السر.

قبل وقت ليس بعيداً ــ عقدين أو أقل ــ كان صاحب أي نص يتهيب من دفعه إلى جريدة أو مجلة أو مطبعة قبل أن يتملى طويلاً في أمر صلاحيته: من حيث دلالته أودلالاته النهائية، ومن حيث صياغته ومقدرة أسلوب الصياغة على إيصال تلك الدلالة إلى القارئ.

كانت للكتابة هيبة، أو على الأقل بقية هيبة، وكانت القلة الواثقة هي التي تجازف بتقديم أعمالها وتنتظر ــ ربما طويلاً ــ قبل أن يحصل الواحد منها على لقب (شاعر، أو قاص، أو روائي، أو ناقد)، فإذا ما حصل ذلك ظل صاحب اللقب الجديد متهيباً لقبه، وفي الوقت ذاته عاملاً بدأب غير عادي على تعزيز

استحقاقاته لذلك اللقب بإنتاج جديد أفضل. وهكذا كان ــ وظل ــ عدد الشعراء والقصاصين والروائيين والنقاد قليلاً، وكانت النتاجات ذات قيمة فنية ودلالية عالية.

يعني: كانت الألقاب تلك لا تغدق جزافاً، بل لا ينالها إلا مبدع صبور دؤوب فقد كانت هناك مرجعية معيارية للتقويم والتلقيب بصرف النظر عن وجود الظواهر المرضية التي كانت استثناءات آنذاك ولم تكن هي القاعدة.

قلنا: مرجعية معيارية؟

حسناً، أعتقد أننا وصلنا إلى (بيت القصيد) كما يقال بخصوص تساؤلنا السابق فلنحاول التوضيح.

قبلاً ومنذ القرن التاسع عشر كان الشاعر أو الكاتب العربي يرتبط (بمشروع)، مشروعٍ ثقافيٍّ بالطبع، والمشروع صادر عن رؤية للذات في علاقتها بالمجتمع، ورؤية للعلاقات داخل المجتمع حيث تتكون البنى والظواهر الاقتصادية والسياسية والثقافية، ورؤية ــ عبر ذلك ــ لعلاقة المجتمع بماضيه أي بتراثه من جهة، وبمستقبله من جهة أخرى، وبالأمة من جهة ثالثة، وبالعالم من جهة رابعة... وفوق ذلك كله كانت هناك رؤية لعلاقة الإنسان بالكون وبحث عن معنى وجوده فيه. وكانت المرجعية المعيارية لقياس صلاحية النص واستحقاق صاحبه للقب (كاتب أو مبدع أو مفكر) ليست فقط كيفيات (الأداء القولي) التي يجب أن تحقق سوية فنية جمالية رفيعة بل أيضاً ــ وأساساً ــ ارتباط تلك الكيفيات بالأهداف الاجتماعية الإنسانية المحكومة بتوجه رؤيوي كوني ينتمي إليه صاحب هذا العمل (النص) أو ذاك.

وبالطبع، كان هناك تنوع رؤيوي ملحوظ، مع تدرجاته من الكونية إلى الذاتية وبالعكس، وكان هناك صراع بين الرؤيات... لكنه صراع تحكمه مرجعية واحدة: مرجعية تحقيق الأهداف الاجتماعية ذات (الأبعاد الحضارية العليا) في نهاية التحليل، وكان هناك (نظام قيم معرفي أخلاقي)، يحكم فعالية الذات المبدعة أو المفكرة وهي تنتج ما يعزز نموذجها الرؤيوي الإجمالي بصرف النظر عن الاختلاف بين الرؤيات الكلية ومع الملاحظة بأن كلمة (أخلاقي) التي استخدمناها هنا لم تكن ــ بتاتاً ــ تعني ذلك الفهم المبتذل الشائع، بل تعني المبدئية والالتزام بهدفية الرؤية والمشروع اللذين ينتمي إليهما المبدع والمفكر... حيث تلك الهدفية هي "المرجعية المعيارية" التي قلنا قبل قليل: إنها بيت القصيد. ولاستكمال الصورة بالنسبة للفعالية الكتابية لدى الأجيال الجديدة نقول:

ــ إن ثمة شيئاً جذرياً، وربما خطراً، قد حدث. فالتحولات الجذرية في أوضاع البنيان العالمي، والمستجدات الحاصلة فيه والمنعكسة سلبياً على استمرار المشروعات الرؤيوية السابقة في عالمنا الفقير المنهوب، والذي كان يوصف (بالعالم الثالث)، نتيجة انتصار الامبرياليين والتطوير الهائل لأساليبهم في الهيمنة على العالم... كل ذلك قد انعكس على الأفراد سلبياً أيضاً، وبقسوة محبطة، وشكّل نوعاً من الفراغ المعرفي العارض لدى المثقفين والكتاب بصورة أساسية، وهذا تفسير مختصر جداً للمطب القاتل الذي يقع فيه كتاب الأجيال الجديدة. ولكن، هل هناك مفر من البحث عن تجديد مقبول للرؤيات وللمشروعات الثقافية في مثل هذه التحولات الخطرة؟

نعتقد ــ من جانبنا ــ إن الإجابة على تساؤلنا الأخير هذا

هي أنه: لا مفر.

وهذه الكلمة المفردة (لا مفر) توجب على كتاب الأجيال الجديدة أن يعيدوا النظر في توجهاتهم الإبداعية، وفي إنجاز رؤيات ومشروعات مجددة للحفاظ على بقاء المجتمع والأمة والإنسانية بقاءً ناجعاً وتقدمياً، وهو ما يتطلب منهم أن يتخلوا عن الاستعجال والغرق في (الذاتوية) المفرطة. وتجديد الصلات بين وعيهم وإبداعاتهم من جهة وبين مستجدات حركة الحضارة الآن من جهة أخرى، على أسس رؤيوية وقيمية مناسبة تتخلق منها المشروعات الثقافية الكبرى المناسبة لتحدي البقاء المطروح علينا كأمة.

فهل سيكون المستقبل القريب للإنجازات الإبداعية لدى شبابنا قادراً على تصنيع الوعي الجديد الذي يؤهل وحده لصيانة البقاء ونجوعه في عالم كهذا العالم؟

إنه سؤال يظل قائماً ويظل يتطلب الإجابة عليه، إبداعياً... وبإلحاح!.

❑❑